الإسلاموفوبيا
من الغرب إلى الشرق

جاسم محمد الشرنخي

ظاهرة الرهاب الإسلامي، أو الخوف المرضي من هذا الدين، في الغرب، لاشكّ أنّ لها جذوراً ممتدة في التاريخ، تضافرت عوامل كثيرة على نشأتها، ومن ثم تقويتها، حتى تشكّلت الصورة النمطية، والحكم المسبق على الإسلام والمسلمين بالإدانة والاتهام عبر العصور، لكنّ هذا التّحامل والكراهية قد ارتفعت وتيرتهما، وتصاعدت حدّتهما، خلال أكثر من عقد من الزمن، إلى درجة أن تحوّل العداء لكلّ ما يمت إلى الإسلام بصلة، من حالات إلى ظاهرة، ومن ثمّ إلى "أمر مشروع"، على حدّ قول (مسعود شاردجره)، رئيس لجنة حقوق الإنسان الإسلامية في (المملكة المتحدة)، وصار الحال في (بريطانيا) – على سبيل المثال – أن لا تخلو الصحف اليومية من خبرين أو ثلاثة من حالات الاعتداء على المسلمين، مثل خلع الحجاب، أو البصق في الوجه..

وإذا كانت تلك الثقافة العدائية في الغرب تجاه ديننا، مصيبة كبيرةً، يتطلّب الأمر معها أن يقوم كل مخلص لهذا الدين، بما في وسعه، من أجل تغيير تلك الصورة الكريهة، وتقديم الإسلام في حقيقته البهية. فإن الكارثة الحقيقية أن تتعرض صورة الإسلام، في نفوس كثير من المنتسبين إليه، أنفسهم، إلى هزّة شديدة، وأن ينتقل مرض الرهاب الإسلامي إلى العالم الإسلامي نفسه، فيتزعزع

الإيمان في قلوب البعض بعظمة الإسلام، كدين جاء لإسعاد البشرية، ورحمة مهداة للعالمين. فباتوا يشككون في ثوابت الإسلام، ويثيرون الشبهات المردودة، التي أثارها الأعداء الكافرون منذ عهد بعيد، وظنّ الناس أنّ الزمن قد تجاوزها إلى غير رجعة، فإذا بالجميع قد فوجئوا بعودة إثارة زوبعة الشبهات –وبقوة– في الفضاء الثقافي، في بعض البلدان الإسلامية، لا سيما في هذا الجزء الذي نعيشه من العالم، الذي ابتلي بـ(داعش)، ومن قبلها (القاعدة).

وأكاد أجزم أنّ بصعود (داعش)، وتمدّده، انتقل التحامل والعداء للمشروع الإسلامي، وللتيار الإسلامي المتنامي، إلى أخطر مرحلة، وهي العداء للإسلام جهاراً نهاراً، والهجوم في عقر (دار الإسلام) على أقدس مقدسات الإسلام والمسلمين، على الرسول الكريم (محمد) (صلى الله عليه وسلم)، وعلى نصوص الإسلام القطعية الثبوت، فأصبحنا نسمع من يرفع بعقيرته بأنّ ما يرتكبه (داعش) من الفظائع المروّعة: من قطع للرؤوس، وعرض مشاهده السّادية في مقاطع الفيديو، واسترقاق للأسرى، بل وقتلهم بصورة جماعية، وسبي للنساء، "إنّها – على حدّ قولهم – هو الإسلام في حقيقته الجليّة، التي يحاول بعض المسلمين، جاهدين دون جدوى، من إخفاء الوجه الحقيقي لهذا الدين". وصرنا نرى من يتجرّأ فيطعن في كتاب الله تعالى، بأنّه يزخر بنصوص كثيرة تحرّض على العنف والقتل والإرهاب، وأنّ الإسلام ما كان أن ينتشر إلّا بحدّ السيف، وأنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) هوّ الذي شرّع قتل الأسرى، بل إنّ القرآن الكريم – حسب زعمهم الباطل – قد عاتب النبيّ لعدم قيامه بمجزرة في حقّ أسرى (معركة بدر)، ويستدلون بتلك الآية التي تصدّرت بعبارة {ما كان}، والتي ارتبطت بواقع تاريخي مضى، لا بحكم شرعي مفروضٍ من قبل الشارع الحكيم عزّ وجلّ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فتلك أهم الشبهات التي يثيرها هذه الأيام صنّاع الإسلاموفوبيا، أولئك الذين وجدوا فرصتهم سانحة للصيد في الماء العكر، وأظهروا – بطعنهم المتكرر المتواصل على صفحات الأنترنت، وغيره – أنّهم رأوا موبقات (داعش) هدايا قدّمت إليهم على طبق من ذهب، وكأنّهم كانوا ينتظرون مثل ذلك كي تتقيّأ أفواههم قيحاً نتناً، أثبتوا به للعالم كلّه، أنّهم أبعد ما يكونون عن الإيمان، ولا يحملون من الإسلام سوى أسمائهم، التي تظهر أنّهم ولدوا من آباء مسلمين ليس إلّا. ولست أرى داعياً للتفصيل في الرد على أولئك النفر،

الذين نقلوا، بأمانة وحرفية شديدة، شبهات ألدّ أعداء الإسلام من المستشرقين، وباتوا يعيدون نشرها من جديد، بفضل (داعش)، التي أخشى أن تكون العذاب، أو العقاب الداخلي، المسلّط علينا، مصداقاً لقول الرسول الأعظم (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فيما يرويه عن ربّه سبحانه وتعالى: "إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ..." ، فيكون (داعش) سبباً قوياً ومباشراً في أن تؤجج نار الحرب المسلّطة على الإسلام والمسلمين.

لكن قد يستلزم الأمر الرد على شبهات البعض، على عجالةٍ، بشأن موضوع انتشار الإسلام بقوة السيف، الذي يكّذبه واقع الشعوب المسلمة، التي وجدت فرصاً متكررة للعودة إلى دين أجدادها، في فترات غياب سلطة الإسلام عن الحكم لقرون، وكما هو الحال اليوم! كما تكذّبه نصوص واضحة وصريحة في رفض فرض العقيدة، كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، تلك الآية المحكمة التي لا تقبل التأويل، ولا تحتمل غير معنى واحدٍ، وهو حرية العقيدة، بعد التحرر من ظلم وعبودية الطواغيت، التي تفتن الناس عن دينهم، وبعد ذلك فالأمر كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وبخصوص الاسترقاق والعبودية، لم يأت نص، في مصدري الشريعة الرئيسين، يشرّع للعبودية، وإنّما جاء الإسلام فأغلق كلّ سبيل من السبل الكثيرة، التي كانت مشرّعة لاستعباد من ولدتهم أمّهاتهم أحراراً، وحرّمها جميعاً، سوى سبيل واحدٍ، ألا وهو الحرب المشروعة، ولم يبقه سالكاً مفتوحاً، بل

ضـيّقه إلى أبعـد الحـدود. فأسـرى الحـرب المشروعة بين حكمين رئيسين، هما: إمّـا المـنّ بإطلاق سراحهم، أو الفداء، تطبيقاً لأمـر الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَـرْبَ الرِّقَابِ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُـدُّوا الْوَثَـاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِـدَاءً حَتَّـى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. هذا هـو الأصـل الشـرعي، كمـا كان هناك حكمٌ استثنائيٌّ، وهـو الاسـترقاق، الذي كان بمثابة قانون سائرٍ في عصـر صـدر الإسلام، وما تلته من عصورٍ، فكان ذلك من مبدأ التعامل بالمثل، وأمّا وقد حـرّم اسـترقاق الأسرى في العصر الحديث عالمياً، فإنّ غالبيـة الفقهاء المعتبرين على تحريم استرقاق من يقـع أسيراً بأيـدي المسـلمين في حـرب مشـروعة، مادام غير المسلمين يمتنعون عـن الاسـترقاق، فلا يجوز لنا أن نتجاوز ردّ الاعتداء بأشدّ من مثله. ثمّ إن الإسلام قـد فـتح أبوابـاً كـثيرة، شجّع بذلك على تحرير العبيد، وجعل كفّـارة أخطاء وذنوب كثيرة عتق الرقاب، وفكّها.

وبخصوص حالات نـادرة جـداً، حـول قتل بعض من وقع في أيدي المسلمين، في عهد رسول الله (صلى الله عليـه وسـلّم)، فوقـائع السيرة النبوية والتاريخ يشـهدان أنّ ذلـك لم يكن بسبب الأسر، وإنّما كان بسـبب الغـدر والخيانة العظمى المتكررة، كما في قتل رجـال (بـني قريظـة)، أو بسـبب جـرائم حـرب ارتكبوها، فقُتلَ أفرادٌ كمجرمي حرب، مثل: (عقبة بن أبي معيط)، و(النضر بن الحـارث)، اللذان قتلا بأمر النبـي يوم (بدر).

فمشهد الخيانـة والغـدر تلـك، وصـورة الحقد الأسود، التي دفعت أصحابها أن يلقـوا حـتفهم ومصـيرهم المشـؤوم، يتغافـل عنهـا صنّاع الإسـلاموفوبيا، في الـدّاخل والخـارج، عمداً، ويحاولون اجتزاء جـزء مـن الصـورة، واستغلالها، للتحريض على العـداء للإسـلام، بتشويه صورته الناصعة.

وهكذا، فـاليوم إنّ المسـؤول – في المقـام الأول – عن نشر مـرض الإسـلاموفوبيا بـين المسلمين أنفسهم، وحمل وزر زعزعة الإيمـان، وفقدان الثقة بالإسلام، فضلاً عـن المشـروع الإسلامي الحضاري، هو (داعش)، بما يقترف من إرهاب فظيع، تقشعّر له الأبدان، يرتكبـه كلّه تحت راية التوحيد، والتوحيد منه، ومـن جرائمهم، براء. وبعـد (داعـش)، فـإنّ تلـك الفئة من أصحاب الأفكار المسمومة، والثقافة الموبوءة، والمشحونة بالعـداء والحقـد الـدفين لديننا، الذين بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكـبر، مسـؤولون أيضـاً عـن بثّ جراثيم الإسلاموفوبيا في الـداخل. فهـل نحن علـى حـذر مـن هـذين الفـريقين سـواء بسواء، اللذين يكمل أحدهما الآخر، ويخـدم بعضهما بعضاً، في حركتيهما الهـدّامتين، بغيـة تصفية الإسلام، واغتيال الإيمان معنوياً؟!❐